لماذا .. في تأريخ فنان مغمور

بقلم عبد الهادي البطاط

لماذا يضيع الفنان في وطننا العربي هذا الطيب ؟ لماذا لا يفتح التاريخ العربي ومؤرخوه صفحات « جديدة » للفنانين العرب الحقيقيين ؟ لقد قرانا في المدارس عن الفنانين الغربيين الكبار ، وكتبت صحفنا ومجلاتنا مئات السطور عن اولئك الفنانين الذين عاشوا في الغرب ، ولم نلحظ في اية مدرسة ، او اية صحيفة او مجلة الاهتمام الكافي بالفنانين العرب الكبار .

في الغرب يمجدون ابطالهم الفنانين ، وقد يصل هذا التمجيد الى حد التقديس ... اما نحن فلا نطلب من جمهورنا العربي الكبير ان يمجد فنانيه او ان يقدسهم ، وانما نريد منه ان يقدم واجبا عليه .. ان يذكر فنانيه بعد ان يتوفوا .. على الاقل ! هل يعلم اكثر من عشرة ــ في سورية او لبنان ــ انه قد عاش في دمشق فنان كبير كبير ، نال من ميداليات الدول الاجنبية وشهاداتها العليا اكثر من عشرين ، وخلد مواقع العرب الشهيرة بمئات اللوحات الرائعة التي تفوق بجودتها وتنفيذها القانوني الصافي ، الكثير من اللوحات المصمودة الان على جدر متحف (بوشكين) في موسكو ، او متحف (درسدن) في المانيا ، او متحف (فينيسيا) في النمسا لفنانين من الغرب... وغاب في ضمير الابد من ثم ، ليغدو اليوم كومة من العظام في شق عميق في تربة الباب الصغير بدمشق .؟!

انه لمن المحزن حقا ان يحدث هذا التجاهل في بلادنا العربية الطيبة. لقد مات الفنان الكبير عام ١٩٤٠ ، اي منذ اقل من عشرين عاما ، ومع ذلك ، فانا كمهتم بالنشاط الفني العربي العام لم اسمع باسمه الا قبل اسابيع ، وكان ذلك عرضا ، في مقابلة اجريتها في برنامج (في هيكل الفنون) الذي اقدمه من الاذاعة السورية ، لاحد الفنانين السوريين المعاصرين . قال لي هذا الفنان :

ــ درست على يد توفيق طارق .

وحين سالته تفسيرا لهذا الاسم وضعت يدي على مفتاح كنز كبير ومغر وغامض التفاصيل .. وذهبت اسأل عنه هنا وهناك . .

عرفت ان له ابنة لا تزال تعيش في دمشق ... واعلنت في احدى حلقات برنامجي الاذاعي عن حاجتي لاخبار عن هذا الفنان الذي اسمه توفيق طارق .. وجاءني حفيده لابنته ــ شاب اسمر صغير اسمه طارق مرستاني ــ احك لي يا طارق عن جدك كل شيء .. خذني الى بيت امك .

ورافقت الشاب الصغير الى بيت امه ، حيث شاهدت المتبقى من لوحات واشياء الفنان الراحل . اني لا ابالغ على الاطلاق اذ اقول للقراء ، ان ما رأته عيناي من لوحات ، كاف لاقناع اي مثقف في هذا الفن ــ فن الرسم اعني ــ ان منتجها يقف على قدميه بكثير من الثقة والشموخ الى جانب (رينوار) او (كوخ) او (كلودمونيه) او اي فنان اخر مشهور وكبير من الغرب .

✶

اطل عام ١٨٧٥ على دمشق ، ليشهد ولادة طفل نحيل الجسم ، اسمر اللون طويل الانامل ، مؤنف الانف ، متسع العينين .. وانسحب عام ١٩٤٠ من مدينة بيروت بحزن وذلة ، وهو يرخي ستر الموت وسره على حياة الطفل النحيل الذي مات شيخا .. ولم يكن الناس الذين عاشوا في هذه الفترة الزمنية في الشرق الاوسط يعلمون انهم عاصروا انسانا كبيرا ، وعربيا كرس ايامه ولياليه ليخلد مظاهر الحياة في سورية ولبنان وفلسطين ، وتاريخ معارك العرب وامجادهم في قطع قماشية تتصدر الان بيوت الامراء الاتراك والمصريين ، وصالونات بعض الحلافين الفقراء من ابناء الشعب في دمشق وبيروت .

مات ابوه وعمر الطفل لا يتجاوز الخامسة ... وعاش في كنف امه في حي (السمانة) بدمشق ، وهو حي شعبي بيوته لا تزال على الطراز القديم ... حتى انجز الثامنة عشرة .

وكان ليل الام والابن النحيل ، طويلا طويلا . كانت تشعل (المنقل) في ليالي الشتاء ، وتجلس مع الطفل حول ناره تحكي له عن ابيه الذي توفي . كانت تقول له فيما تقول : عينا ابيك كأننا واسعتين .. مثلا ، وحاجباه كثين ، وانفه دقيقا ، وذقنه عريضة ، و .. الخ .. وكان الطفل النحيل الذكي يستمع الى حكايا امه عن ابيه بانتباه . وفي ليلة من ليالي الشتاء فوجئت الام بالطفل توفيق الاسمر يمسك بيده ورقة رسم فوقها خطوطا ما بقلم الرصاص .

قالت الام :

ــ ارني هذا يا توفيق ...

واعطاها الطفل الورقة، ودهشت الام لحد البكاء . « لا.. لا .. كيف حدث هذا؟انه ابوك بعينه ياتوفيق»!

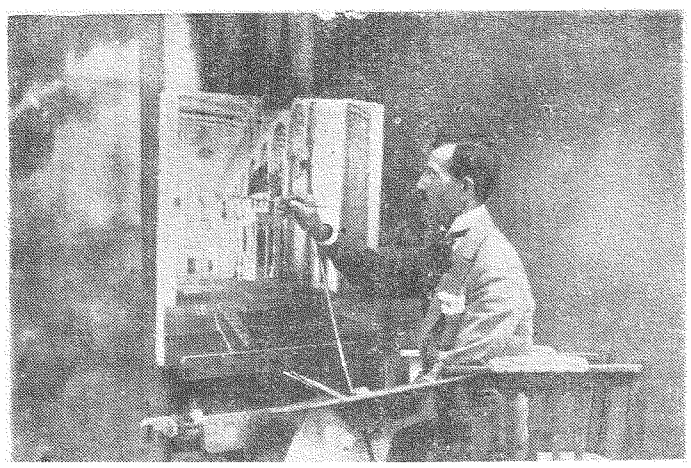

توفيق طارق يرسم (الجامع الاموي) . لاحظ اسفل اللوحة ... انه يرسم من الاسفل ، ثم يصعد للمناطق العليا من اللوحة !

من خلال ما حكت الام عن الاب ، رسم توفيق الطفل اباه ، من خياله فجاء الرسم طبق الاصل ! وكانت الام غنية ، فأرسلته على نفقتها الى باريس ليدرس مبادىء الرسم سنتين ، وليعود الى دمشق ، ليحصل على شهادتين : (مهندس في مساحة الاراضي) و (مهندس في البناء) . وفي غمرة استعداد تركيا للحرب ، اجبر على الدخول في الجيش التركي برتبة (مرشح) بعد ان انهى الدراسة العسكرية في المدرسة (الرشدية العسكرية . بعدها سافر الى تركيا لمدة ستة اشهر ، وعاد ، من ثم الى دمشق .. كان يمارس هوايته في الرسم بالاضافة الى عمله في الجيش التركي .

وكان يتمتع بذكاء خارق ، وقوة ذاكرة عجيبة .. وبدأ يشتهر بفنه هذا حين رسم احدى الشخصيات البارزة في مجتمع دمشق ، من خياله ، في وضع خاص في (المرحاض) ، رسما طريفا تحدثت عنه دمشق في سهراتها الظريفة لمدة طويلة .

وحدث مرة ان كلف بالذهاب للسلطان عبد الحميد في وفد عسكري ، يحمل لائحة باسم جماعة من الضباط المستحقين الترفيع . وفي تركيا خطرت للمرشح توفيق فكرة .. « ان امضاء السلطان عبد الحميد صعب، ولكني استطيع ان اقلده ! » وهكذا خرج الفنان توفيق من عند السلطان ومعه ورقتان : الاولى بترفيع قائمة الضباط . . والثانية بترفيعه هو ! وعلمت دمشق بالحادث ، فأبرقت الى تركيا تخبر القصر بان المدعو توفيق طارق ليس من الضباط المستحقين الترفيع. وثار السلطان عبد الحميد.. « كيف يستطيع هذا الفنان ان يقلد امضائي ويلعب على ذقني ؟ »

وهكذا سلبت منه الرتبة .. وسجن .. ثم عفا عنه السلطان واعادهالى رتبته السابقة : (مرشح) . وسافر اثناء الحرب العالمية الثانية الى (الترعة)مع من ذهب من جنود الجيش التركي لمقاتلة الانكليز .. وهناك اسره هؤلاء ، ولكنه استطاع ان يكسب الطف الضباط الحراس عليه .. أخذ يرسمهم .. واقنعهم مرة بزيارة دمشق . قال لهم ان في دمشق جامعا كبيرا جدا ، له باب واحد اسمه (الاموي) ...

وفي دمشق دخل معهم هذا المسجد من باب (المسكين) وبقي بعض الحراس من الرتب الخفيفة على الباب خوفا من هروبه ... وفي داخل المسجد الكبير اختفى الفنان الذكي ..

كان قد خرج من باب اخر !

ومن المعروف ان (للاموي) اكثر من باب !

وسافر بعد مدة الى الحجاز ليرسم (الحجرة النبوية) ، ولكنه منع هناك من ذلك بحجة ان الدين الاسلامي لا يسمح بهذا .. ورجع الىدمشق عن طريق فلسطين وفي رأسه انطباع قوي للحجرة النبوية الشريفة . رسم الحجرة في لوحة رائعة (ترى صورة عنها مع هذا المقال) وهو في فلسطين . اصبح في هذه الفترة فقيرا معدما ، وقبل ان يعود الى دمشق اودعها عند احد بائعي (الكازوز) لان نقل الصور من فلسطين الى دمشق كان ممنوعا الا بمراسيم قاسية وطويلة ، على أن يرجع فيأخذها حين يمتلىء جيبه بالمال ، ولكنه لم يستطع الرجوع الى فلسطين ثلاث سنوات رسم خلالها حوالي ثلاثين لوحة تركها كلها عند آل (فوزي ابو الهدى) الذي ارتحل الى بيروت ولا يزال يسكن فيها حتى الان .

وعاد الى دمشق . كان يلبس في هذه الفترة قبعة ، فأسماه اهل دمشق لذلك بـ (الكافر) . ويروى انه كان مرة مع تلميذه الفنان المعروف(زهير الصبان) يرسم احد احياء (العمارة) .. ومر امامه احد الفلاحين على حماره ، وهتف به :

ـ هادا هوه الكافر !

واذا بفناننا الكبير ينفجر غيظه المكبوت ، ويهاجم الفلاح الغبي ، ويشبعه ضربا ولكما ، حتى جاء الناس وحلوا التشابك الدامي !

وكان توفيق طارق يهدف الى توحيد لباس الرأس ، وقد رأيت بين مخلفاته في بيت ابنته ـ زوج السيد (عبده المرسناني) في دمشق ـ اسكتشات كثيرة للباس الرأس في انواع متعددة ، ولكنه لم يكن ليجب ان يعتم بالطربوش الاحمر ، ويفضل عليه القبعة .

وعندما احترق الجامع الاموي وتهتمت اكثر تزييناته ، جاء العمال الجاهلون، فكادوا يضيعون معالمالبقية الباقيةمن الفسيفساءوهم يرسمون الجدر ... وجاء فناننا المهندس يوما يراقب العمل ... وصاح بملء فيه بنزفه المعروف ـ توقفوا ايها الاغبياء ..

وتوقف العمال . وصعد الفنان الاصيل يرمم الفسيفساء المحترق .. ولولاه ، لكان فخر دمشق بفسيفساء الجامع الاموي الان ، ليس له مكان في احاديث التاريخ . وفي هذه الفترة ايضا اشرف على ترميم جامع السنانية المعروف في منطقه (باب الجابية) بدمشق ، وعلى اعاده مبنى المجمع العلمي العربي . وفي هذا المجمع اليوم اربع لوحات محفوظة للفنان (توفيق طارق) .

وكان سخيا الى ابعد حدود السخاء ، نزقا الى حد انه لم يكن احد ليجرؤ ان يوجه اليه اي نقد ، وتراثا ذا نكتة وسخرية .

وقد تزوج مرتين . الثانية اسمها (مسرة) تزوجها بعد وفاة زوجه الاولى ، ومنها ابنته (زهره) التي تعيش الان في دمشق ويقدر عمرها بحوالي الخمسين . تقول ابنته (زهره) هذه انه لم يكن يبيع اية لوحة الا اذا وافقت هي على الثمن . وحدث مرة ان رسم لوحة (مشمش في كأس مملوء بالمياه) وعرضها في واجهة مكتبة (محاسن) القديمة في شارع الصالحية بدمشق ، ووضع تحتها رقم (٢٥ ليرة ذهبية) . وحين قال له صديقه الفنان المعاصر سعيد تحسين :

ـ السعر غال جدا يا توفيق .

أجابه :

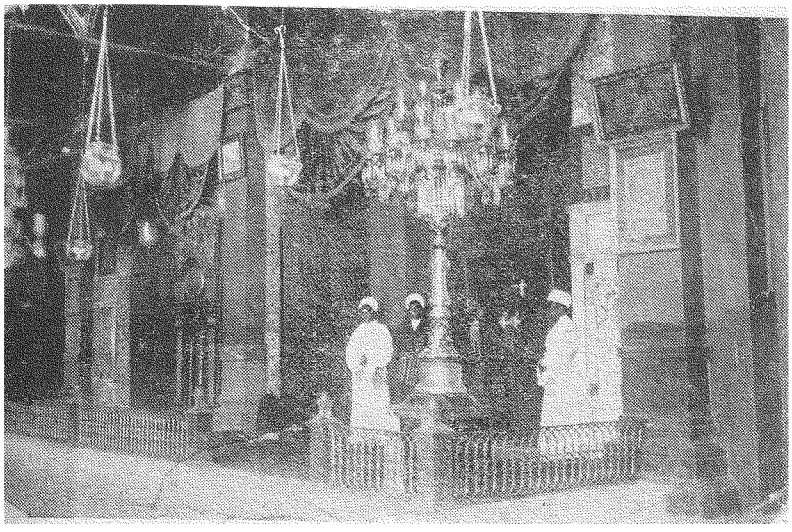

صورة فوتوغرافية عن لوحة (الحجرة النبوية) للفنان طارق . لاحظ الدقة في التنفيذ .

ـ الذي لا يريد ان يزوج ابنته ، يرفع مقدار مهرها .

وكان يدخن بكثرة ، ويقول عنه البعض انه كان يحسي الخمرة . ولكن ابنته (زهره) نفت لي هذا بشدة .

وكان انيقا جدا .

وجاءه مرة صاحب احدى دور السينما التي كانت في ، سوق النبن في دمشق ، ورجاه ان يرسم له على السنارة المتحركة للمسرح اي منظر تزييني . وصور عليها الفنان توفيق صورة لجبل (المهاجرين) في يوم مشمس وقد ارتاده الدمشقيون (للسيران) ، واخذ الناس يتدفقون على صالة السينما هذه لينفرجوا على الصورة لا على ما تعرضه الشاشة ! وقد ربح صاحب الدار من جراء ذلك ، كثيرا من المال .. وبدأ الفنان الكبير يمرض . فسافر الى بيروت .. وهناك ابلغ ان الحكومة التركية قطعت عنه معاش التقاعدية الذي كانت منحته اياه بعد انهاء خدمته في الجيش. وقد عاش في بيروت وحيدا الا من خادم صغيره من افريقيا رسمها في لوحة صغيرة الحجم ، محفوظة الان عند ابنته في دمشق ، وهناك ابدع لوحته الضخمة المسماة (حريق صيدا) .

وكانت له طريقة عجيبة في الرسم .. فلقد جرت العادة ان يبدأ الفنان برسم اللوحة من الاعلى الى اسفل .. اما هو فقد كان يبدأ من الاسفل ثم يصعد في العمل الى اعلى .

وفي بيروت اشتغل بالاضافة الى ممارسته هوايته المضنية عمل مساحة الاراضي .

★

كان مساء خريفيا ، رجع فيه من احدى رجلانه الى حقل رطب الارض ،

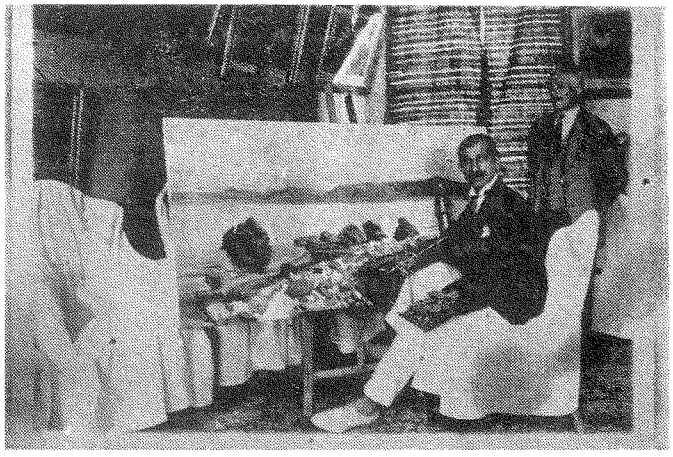

الفنان الانيق اثناء العمل في احدى لوحاته (اعمى طبرية)

واحس بان في عينيه غشاوة ما . وفي البيت انكب على طاولة يكتب لابنته في دمشق انه يحس بمرض وتعب مرهق .. ثم انتقل الى زاوية اخرى في غرفته ليضرب بريشته الخطوط الاخيرة للوحة كبيرة عن معركة حطين) .

وبعد ايام جاءته الابنة التي يحبها ..

كان وجهه قد اصفر ، فتجعدت البشرة ، وارتجفت الاصابع الطويلة المؤنفة ..

وعانقته الابنة البارة .. ومن خلال دموع الوداع رجاها ان تذهب . فتمر بكفها على سطح اللوحة التي لم تتم ... لوحة (حطين) . وذهبت الابنة لهذا الطلب ـ اذ انه لم يكن يسمح لاي انسان ان يلمس اية لوحة من لوحاته ـ . ومرة ثانية رجاها ان تذهب فتتلمس اللوحة الكبيرة بكفها ، ولما فعلت ، سألها :

ـ ماذا وجدت بها من جديد يا زهره ؟

قالت الابنية :

ـ انها .. خشنة يا ابي .

وقال الفنان في تباطؤ :

ـ هذه هي الطريقة التي ستسود المدارس الجديدة في الرسم .

ثم توقفت شفتاه المتحركتان عن الحركة ، وتهدل الجفنان الطريان الازرقان ، وارتخت اليد التي كانت قائمة تشير بأناملها المؤنفة الدقيقة الطويلة الى اللوحة الاخيرة ... وغرزت الابنة البارة وجهها في الصدر البارد ، مجهشة بصمت .

قد تمطر السماء هذه الليلة .. وبين قطرات المطر المنسابة على القبور الترابية في مقبرة (باب الصغير) في دمشق ستكون دموع الناس الطيبين الذين يحترمون الانسان الحقيقي الذي يعيش بصدق وبساطة وعمق وطيبة . ان فناننا العربي الكبير يرقد اليوم في مقبرة (باب الصغير) .. اننا لا نستطيع ان نحدد يوم وفاته لتكون له ذكرى سنوية معينة .... فلقد مات توفيق طارق في وطننا العربي هذا ، مثلما يموت كل الناس العاديين .

سوريا ـ دوما

عبد الهادي البكار

في المكتبات

وحبرتها

الديوان الجديد الرائع للشاعرة العربية المبدعة

فدوى طوقان

وفيه قصيدتها الطويلة المشهورة « هو وهي »

وقصائد وطنية وعاطفية مختلفة

منشورات دار الآداب

ص.ب. ٤١٢٣